٤٤ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي اودورد وليم لين

الأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثالث عشر ـ الأفيون

يمكن أن نعزو ميل المصريات إلى اللذات الشهوانية وفساد أخلاق الكثيرات منهن إلى عدة أسباب ينسب بعضها إلى المناخ والبعض الآخر إلى حاجتهن إلى التعليم المناسب والتسلية البريئة والاشتغال بعمل . ولكن ذلك يرجع على الأكثر إلى سلوك الأزواج أنفسهم ، وهو سلوك أكثر خزيا لهم من الصرامة الشديدة التي يستعملونها في تنظيم الحريم . فجميع الأزواج في مصر يسعون إلى تحريك شهوة نسائهم بكافة الوسائل التي في قدرتهم ، مع أنهم في الوقت ذاته يكدون ويثابرون لمنع زوجاتهم من إشباع هذه الشهوة بطريق يخالف الشرع . وهم يسمحون للنساء بالإصغاء من وراء الشبابيك إلى الأغاني الخليعة والروايات الفاحشة التي ينشدها في الشارع رجال يؤجرون لذلك ، كما يسمحون لهن بمشاهدة رقص (الغوازي) الشهواني «والخولات» المخنثين . ويأذنون للغوازي ، وحرفتهن الدعارة ، بدخول حريم الأغنياء ، لا لتسلية السيدات بالرقص فحسب بل لتعليمهن الفنون الشهوانية . وقد يجلب أحيانا لتسلية الحريم دُمَّى لا حشمة فيها

روى لي عن كيد المصريات حكايات لا حصر لها . أذكر نموذجاً منها القصة التالية وقد حدثت أخيراً : تزوج نخاس شابة جميلة من هذه المدينة ، وكان يملك مالاً يهيئ له عيشاً رغداً ، ولكنه فقد أكثره ، فكان له في ثروة امرأته عوض . ولم يلبث الرجل مع ذلك أن أهمل زوجه . ولكنه كان قد قضى عهد الشبان فلم تكترث زوجه لذلك ، ومالت إلى رجل آخر يعمل زبالاً وكان قد تعود الحضور إلى منزلها . فاشترت لهذا الزبال دكاناً بجانب المنزل ونفحته مبلغاً من المال يصلح به شأنه . ثم أخبرته أنها ابتكرت طريقة ليزورها في اطمئنان تام . وكان لحريمها شباك بمصراعين قامت أمامه على قرب منه نخلة تعلو المنزل ، فلاحظت أن الشجرة تقدم لعشيقها وسيلة للوصول إلى غرفتها والهرب منها وقت الخطر . وكان لها خادمة واحدة تعهدت بمساعدتها على تحقيق رغباتها . وفي اليوم السابق لأول زيارة لعشيقها أمرت خادمتها أن تخبر الزوج بما سيحدث في الليلة التالية . فعزم الزوج على مراقبة زوجه ، وأخبرها أنه لن يعود إلى المنزل تلك الليلة ، ثم اختبأ في غرفة سفلى . ولما جن الليل جاءته الخادمة تخبره بحضور الزائر إلى الحريم فصعد إلى أعلى ولكنه وجد باب الحريم مقفلاً . وعندما حاول فتحه صرخت زوجه ، وحينئذ هرب عشيقها من الشباك عن طريق النخلة . واستغاثت الزوجة بجيرانها وأخبرتهم أن لصاً في دارها . ولم يلبث أن حضر كثيرون منهم فوجدوها قد أوصدت باب غرفتها على نفسها وزوجها في الخارج ، فأخبروها أن ليس بالبيت غير زوجها وخادمتها ، فقالت إن من يدعونه زوجها هو اللص لأن زوجها يبيت خارج المنزل . فأخبرهم الزوج حينئذ بما حدث وأكد أن رجلاً معها ، وكسر الباب وبحث في الغرفة ولكنه لم يجد أحداً . فلامه الجيران وشتمته زوجته لافترائه عليها . واصطحبت في اليوم التالي اثنين من جيرانها الذين حضروا على صراخها ليشهدا أن زوجها قذفها في عرضها واتهمته في المحكمة أنه رمى امرأة عفيفة دون رؤية أو شهود . فحكم عليه بثمانين جلدة تبعاً لشريعة « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » . وطلبت الزوجة بعد ذلك من زوجها أن يطلقها فرفض . وعاشا معاً ثلاثة أيام بعد هذا الحادث في سلام . وفي الليلة الثالثة دعت الزوجة عشيقها ليزورها وقيدت زوجها يديه ورجليه أثناء نومه وشدته إلى حشيته . وجاء عشيقها فأيقظ الزوج وهدده بالموت العاجل إن صاح . ومكث مع الزوجة ساعات في حضوره . ولما خرج المتدى فكت الزوجة وثاق زوجها ، فنادى الجيران وأخذ يضربها بقسوة وهي تستغيث . وحضر الجيران ورأوه هائجاً ، فلم يشكوا في قولها أن الرجل مجنون . فخلصوها من قبضته وهم يحاولون تهدئته بالكلام اللطيف ويدعون الله أن يشفيه . وأسرعت الزوجة باستدعاء رسول القاضي وذهبت معه هي وزوجها وكثير من الجيران الذين شاهدوا الحادث إلى القاضي . وأجمع الجيران على أن الزوج مجنون فأمر القاضي بوجوب إرساله إلى المارستان[1] . ولكن الزوجة تكلفت

(١) وينطقها العامة مرستان بضم الميم وكسر الراء (المؤلف)

ذكر المؤلف كلمة مارستان بكسر الراء والمعروف فتح الراء . وهذه الكلمة فارسية أصلها بيمارستان مركبة من بيمار بمعنى مريض وستان بمعنى مكان ثم اختصرت فصارت مارستان . انظر العرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي طبعة دار الكتب ١٣٦١ هـ (المترجم)

الشفقة والتمست السماح لها بتقييده فى غرفة من غرف منزلها حتى يمكنها أن تخفف من آلامه بالاعتناء به . فوافق القاضى مثنياً على عطف المرأة وداعياً الله أن يكافئها . وحصلت الزوجة بعد ذلك على طوق من حديد وسلسلة من المارستان . وقيدت زوجها فى حجرة سفلى من المنزل . وجعل عشيقها يزورها كل ليلة فى حضور الزوج . ثم تلح عليه بعد ذلك ليطلقها بلا جدوى . وكان الجيران يحضرون يومياً للسؤال عنه . فيشكو لهم من امرأته ويتهمها فلا يجيبونه بغير قولهم : « شفاك الله! شفاك الله ! » واستمر هكذا شهراً فلما تبين للزوجة إصراره على الرفض أرسلت فى طلب حارس من المارستان لينقله إليه . والتف الجيران حوله عند خروجه من المنزل وصاح أحدهم : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! شفاك الله ! » وقال آخر : « يا خسارة . . . كان رجلاً فاضلاً حقا ! » وقال ثالث ملاحظاً : « حقا ... إن الباذنجان[1] كثير الآن !... » وأخذت الزوجة تزور زوجها كل يوم فى المارستان ملحة فى طلب الطلاق وهو يرفض . فتقول له : « ستظل إذن مقيداً حتى تموت ، وسيأتى عشيقى عندى على الدوام ! » وأخيراً رضى الزوج بالطلاق بعد حبس سبعة أشهر . فأخرجته من المارستان ونفذ وعده . وكان عشيق الزوجة من طبقة دون طبقتها فلا يمكن أن يكون زوجاً لها فبقيت عزبة وظلت تستقبله متى تشاء . غير أن الخادمة كشفت عن حقيقة الأمر . ولم يلبث الحادث أن أصبح حديث الناس .

تتعرض الزانية إذا كانت زوجة لثرى أو لذى منصب ، كما يتعرض عشيقها ، لأهوال عظيمة[2] . وقد حدث أخيراً أن انتهزت زوجة أحد ضباط الجيش الكبار فرصة غياب زوجها عن العاصمة ، فدعت لزيارتها تاجراً مسيحياً اعتادت أن تشترى منه الحرائر . فذهب التاجر إلى منزلها فى الوقت المعين فوجد عند الباب أحد الأغوات قاده إلى منزل آخر وجعله يتنكر فى ملابس سيدة . ثم عاد به وأدخله على سيدته . وقضى التاجر الليل كله تقريباً فى بيت المرأة ، ثم نهض قبل أن تستيقظ وأخذ فى جيبه كيس نقود كان قد أعطاه إياها . ونزل إلى الأغا ليقوده مرة أخرى إلى المنزل الذى تنكر فيه . فاسترد ملابسه وقصد دكانه . ولم تلبث السيدة التى افتقدت الكيس أن ذهبت إليه واتهمته بأخذه . ثم أخبرته أنها لا تريد نقوداً ولكنها تبغى رفقته فقط . ورجته أن يعود إليها فى الليلة التالية ، فوعد بالحضور . غير أن إحدى خادمات السيدة حضرت إلى دكان التاجر عصراً وأخبرته أن سيدتها مزجت بعض السم فى الماء لتقدمه إليه . ويقال إن المرأة كثيراً ما تختار هذه الطريقة لتنتقم من عشيقها لأقل إهانة .

يندر أن ترتكب الزوجة المسلمة الزنا دون أن تعاقب بالموت إذا شهد على الواقعة أربعة شهود . ويرفع الشهود أو الزوج دعوى الزنا . وقلما تنجو الزانية من العقاب إذا ضبطها أحد الضباط . فلا يلزم فى الحالة الأخيرة شهود أربعة ، وإنما تعدم المرأة سراً ، إذا كانت من عائلة محترمة ، تحت سلطة الحكومة الاستبدادية . غير أن الرشوة قد تخلصها أحياناً لأنها تقبل دائماً إذا لم يكن هناك خطر . وتكاد عقوبة إغراق الزانية تجعل الآن محل الرجم فى القاهرة وغيرها من مدن مصر الكبيرة .

ويحكى أن امرأة فقيرة من هذه المدينة تزوجت من بائع طيور ؛ وبينما هى تعيش مع زوجها وأمها فى سكن ، اتخذت ثلاثة مساكن أخرى وتزوجت ثلاثة أزواج آخرين كانوا جميعاً يتغيبون عن القاهرة . وحسبت هكذا أنه يسهل عليها إذا جاء أحد الثلاثة إلى المدينة لبعض أيام أن تجد عذراً للذهاب إليه . ولكن حدث لسوء حظها أن قدم الثلاثة فى اليوم نفسه وذهبوا فى مساء ذلك اليوم يسألون عنها فى منزل أمها . فارتبكت لحضورهم معاً ولوجود زوجها الأول أيضاً . فتظاهرت بالمرض وسرعان ما تصنعت الإغماء ، فحملتها أمها إلى غرفة داخلية . واقترح أحد الأزواج إعطاءها شيئاً يقويها . وأراد آخر تجربة دواء مختلف . وأخذ الجميع يتناقشون فى أى الأدوية أفضل . وقال أحدهم : « سأعطيها ما يحلو لى . أليست امرأتى ؟ » فصاح الآخرون فى صوت واحد : « امرأتك ! إنها امرأتى » وأثبت كل منهم زواجه . فقدمت الزوجة إلى المحكمة وحكم بإدانتها وقذف بها فى النيل . وقد حدث حادث مشابه لهذا أثناء زيارتى الأولى فقد تزوجت امرأة ثلاثة من جنود النظام ، فدفنت فى حفرة إلى صدرها وأعدمت بالرصاص

هنرى طاقد نور

(١) يقال إن الجنون ينتشر ويشتد فى مصر فى موسم الباذنجان الأسود

(٢) وقال لى أحد الأصدقاء : كم رجل فقد حياته بسبب النساء ! لقد كان يعيش فى هذا المنزل الذى تسكنه الآن شاب خليع جميل الصورة . وقد قطع رأسه هنا فى الطريق أمام باب منزله لعلاقة أثيمة مع زوجة أحد البكوات . وقد بكته نساء مصر جميعاً .

حكم فى القضية ٢٥٢ عسكرية الموسكى سنة ١٩٤٢ بحبس محمود محمود البنا عشرة أيام بالشغل وتغريم كامل موسى اسماعيل عشرة جنيهات ليعيدا خبزا بازيد من السعر المحدد بجدول الأسعار